حزيران
في سجلّ الذكريات

لامع الحر

نعيش عصر الذكريات ونلتقط ردهات أيّامنا الماضية على مقربة من الحاضر القادر على الانبعاث رغم هجمة الموت المتمادية في طغيانها حتّى العدم.

الذكريات وحدها تتوّج الحاضر، وتقول ما ليس يرضينا، كأنّنا أقرب منها إليها، أو كأنّنا نريد لها أن تستمرّ لتستمرّ حياتنا كما يشاء السيِّد الوالي، أو كما تشاء أهازيج جدّتي القابعة في ركنها آنسة مطمئنّة.

وهج أطلّ من البعيد رماداً. وسحاب تناثر فوق صخب أمواجي زبداً. وبنادق يطاولها الردى فيصطادها المقنّعون وينحرون ما تبقّى من لهاث صوتها.. وزمان يمتدّ حتى آخر الحنجرة، ليدع تأوُّهاته بعيداً عن شجرة السنديان التي لا تجيد الذبول.

نعيش عصر الذكريات ونبكي. حاضرنا ماضينا. ماضينا مستقبلنا. ومستقبلنا ملٌّ حداثة الشعراء وعاد إلى نثر ابن المقفّع وعبد الحميد الكاتب وأسجاع الكهان ليبدع نكهة تنسجم مع أصوله التي لا تشيخ.

حياتنا كلّها إرث. موتنا إرث. جوعنا إرث. مالنا إرث. وتجليات أفكارنا التي لا تطأطئ رأسها إرث. نحن لم نبدع شيئاً. فقط نقف على الأطلال ونتذكّر الحبيبة ونبكي.

قدريُّون حتّى العظم. ومحاطون بمسحة من فسيفساء الكلام ومستغرقون في استرجاع ما شبَّ وما شاب من عمرنا الفائت.

أكتب سعياً إلى قول شيء ما. فتحاصرني الذكريات وتأخذني إلى أفيائها المحنّطة، وتعيد تشكيلي في إطار يتناسب والرَّاهن. لكنّ في الداخل شيئاً ما يرفض ويقول: «أنا سيِّد الحكمة المنتقاة، وأنا الضوء المتوّج بالحجارة، وأنا أقرب منكم إليكم، فاشربوا عصارة قلبي واتبعوني».

* * *

سيِّئات عصرنا ذكريات، نعيش في الماضي دائماً ولا نقرأ عِبَرَه جيِّداً. نحاول أن نفرض معادلات جديدة فنسقط في فخاخ العصبيات الحزبيّة والطائفيّة والإقليميّة. ونحاول أن نتسلّى في تضميد جراحاتنا فتتّسع، وتتّسع.. وتعود محاولاتنا إلى أصولها خائبة باكية.

زمن نحاول أن نستعيد منه ما يليق بنا، أو ما يساوق شوقنا إلى البعيد، أو ما يؤرِّخ عطاء نريده ألّا ينتهي. لكنّه يستبدّ بنا لأنّنا عراة حتى من جلدنا، واتّباعيون من الرأس حتّى أخمص القدمين.

نحن ـ إذا تجاوزنا بعض الاستثناءات ـ لم نبدع شيئاً. نقول ما يقول الآخرون دون تغيير حرف واحد. ونفعل ما يتوافق مع كلام السوق وهرطقات المقاهي، ونخطِّط لسهرة خمر عرمرميّة على أنغام الجاز لنسقط مراراتنا وننسى قليلاً بعض إحباطاتنا التي لا تتوب.

* * *

لحزيران مكانة مميَّزة في سجلِّ الذكريات الذي يبدأ ونريد له ألّا ينتهي لتبقى لنا عافيتنا الموهومة، ولنبقى نحن الذين نريد ألّا ننتهي.

هذا التاريخ يعود بي إلى طفولة لم أعد أذكر منها إلّا القليل، القليل الذي يجب ألّا يُنسى لأنه جزء من حاضرنا، وربّما مستقبلنا.

في حزيران ١٩٦٧ أكثرُنا لم يتوقّع أنّ الهزيمة ستكون نصيبنا، والفشل طريقنا إلى سلام مزعوم، واحتلال أراضٍ عربية جديدة دافعاً لإيقاف الحرب واعترافاً لا يقبل الشكّ بالنكسة. ولكن رغم كلِّ هذه المرارة كنّا مؤمنين أنّنا خسرنا معركة ولم نخسر الحرب، وأنّنا سننتصر غداً أو بعد غد، لأنّنا كنّا نملك من القوّة المعنويّة ما يؤهِّلنا للصمود وما يدفعنا إلى ترسيخ قناعاتنا للاستمرار في تأهيل جيوشنا لخوض حرب تطابق حلمنا العربي الكبير. وذلك يعود إلى الشعور القومي العارم وإلى الثقة الجماهيريّة الكبيرة بالقيادة التاريخيّة لجمال عبد الناصر.

وفي حزيران ١٩٨٢ لم يكن أحد يعتقد أنّنا سننتصر، بل كانت الهزيمة متغلغلة في عروقنا منذ سنين نتيجة لِسيادة عصر الردّة وغياب المشروع القومي وسقوط الشعارات الكبيرة في خضمّ التنازلات الكثيرة. ولهذا لم يفاجئنا السقوط، فتلقّينا الخيبة مودِّعين القناعات التي تحوّلت إلى سراب بقدرة قادر.

هرب الذين هربوا، وبقي في الساح المتشبِّثون بالأرض، والمدافعون عن خصلات شعرها، والمنصهرون في خفيف أوراقها،

والزارعون دمهم مياهاً لحصاد سوف يأتي.

انهزمت حقيقة، كنّا نتصوّرها حقيقة ولم ينهزم الحلم، احترق الرماد وأضاء معالم شارعي المنسيّ. واقترب الضجيج منهم فكانت مسيرة الحياة عبر موت لا يخطئ.

وماذا بعد؟

غرقت السفينة بكلّ ما فيها. وتوّج المحتلّ مشروعه انتصاراً على دم لا يموت. وانكفأ الآخرون إلى زمن سوف يأتي.

ذكرى الاجتياح وقفة مع التاريخ تستدعي الانتباه والاستقراء لنعرف أين نحن وأين ذاهبون. لعلّنا نعرف أيّ جدوى لهذه الذكرى في حشرة الذكريات الآسنة.

بين حزيران الأوّل وحزيران الثاني ولدنا نحن، وانسجمنا مع تفاصيل أجسادنا التي لم تقبل الحلول في أيّ جسد. وعدنا إلى ارتجاجات قلبنا حاملين حلمنا القومي الكبير.

بين حزيران الأوّل والثاني غابت وجوه، واسودّت وجوه، ونبتت فوق أديم الأرض وجوه، وغادرنا النجم القطبيّ ففقدنا البوصلة وضِعنا في منازعات خرّبت ما تبقّى من نغم في غرابة هذا الخريف الطويل.

بين حزيران الأوّل والثاني ولدنا نحن ولادة قيصريّة، وبتنا على جذع شجرة تشكّل الاستثناء الوحيد في ركام هذا العالم.

بين حزيران وحزيران مراحل مهّدت للاحتلال والاعتقال معلنة سيادة العصر الصهيوني على مختلف شؤون حياتنا، وعلى جسور آمالنا التي صدّعها التماس مع تلموده التليد والطريف.

بين حزيران وحزيران شبّ أطفال الوطن العربي فرأوا أنّ ما تعلّموه في الصِغَر أصبح كذبة في الكِبَر، وما حفظوه عن ظهر قلب لم يبق له أيّ مكان في القلب.

حزيران شهر الأيّام السود رغم لاءات التاسع والعاشر منه. شرّش في الصدر، وحفر عميقاً في الصميم، ليبدع من هذا السواد بياض عالمنا المقبل.

لا بأس يا حزيران. نحن قادمون إليك على شبكة خلاص عربيّة قلباً وقالباً؛ وحاملون ذكرياتنا فوق ظهورنا لنرميها في وادي النسيان معلنين انصهارنا في عصرنا نحن، ولنختتم هذا الشرود المقيم في أجوائنا الداخليّة حواجزَ نفسيّة قاتلة.

* * *

لابأس يا حزيران. الذكريات تتراكم ونحن نسير وراءها مدجّجين بأمنيات، لعلّنا نستلهم شيئاً وسط هذا السراب.

لابأس يا حزيران.

ذكراك عودة إلى الذات التي كادت تفقد مقوّمات ذاتها، لتصبح شيئاً آخر يصل إلى حدّ الانصهار في خواء اليباس الذي لا ينشطر.

ذكراك نستعيدها لا لنقف على الأطلال أو لنعود إلى الماضي السحيق بل لنستعيد ما فقدنا من أحلام كانت لنا وعياً حضاريّاً لم يغب في أعتى اللحظات.

لا أتذكّر حزيران لأبكي أو لأرثي. فأنا لا أجيد البكاء ولا الرثاء. ولكنّي أتذكّر لكي أتذكّر، أو لكي أقفز إلى زمن بلا حزيران، وأقنعة سوداء، وأكفان جاهزة لأولئك الذين يبحثون في كلّ الأزقّة عن بلسم الحياة.

في حزيران ١٩٨٢ لم أغادر صيدا حفاظاً على جسدي. وبعد الاعتقال لم أغادر بيروت التي دمّرتها الحرب، كما لو أنّ هناك رغبة كامنة في الموت، الذي يشبه الولادة أو الانبعاث.

في حزيران لم ترهبنا الآليات والمدمّرات والجنرالات والاجتياحات. بل أرهبنا سقوط مشروع يمثّل أجمل أحلامنا، وسقوط شعارات طنّانة رنّانة صفّقنا لها عمراً.

حزيران هو الفارق بين زمنين. زمن الحلم بتجلّياته الكثيرة، وزمن الانقلاب على الحلم بإرهاصاته المستفحلة.

ما أجمل أن يصبح الحلم واقعاً. وما أسوأ أن نفقد حرّيّة الحلم.

أحلامنا بكلّ تفاصيلها الجميلة هُزِمت، ولم يعد لنا سوى الركون إلى أخطبوط هذا الواقع المستجدّ، الذي يحاول أن يثبت جدواه بعد كلّ انتكاسة.

* * *

للذكريات مكان في الذاكرة. والذاكرة تستجدي شآبيب المطر لتستعيد أغنيات مجّها الزمنُ الحاضر، وغادرها إلى مسرح الواقعيّة الجديدة التي ترى الأشياء بمنظار مختلف عن موروثنا الفكري، فنغدو وكأنّنا وُجِدنا في زمان غير زماننا.

للذكريات قصائد لا يمسّها النسيان ولا تنال منها تقلّبات الدهر وغدره. لكنّني أهفو إلى أمل يعيد فضاء نشوتي المستيقظة.

وللذكريات ألف حزيران يلتفّ على عنقها ليجرّدها من كلّ الأوسمة والنياشين، وليقول: «أنا بالمرصاد. أحلامكم أوهامكم. وفضاء فكري يتّسع ليغمر ما تبقّى من هشيم فوق هذا المحيط المتحرّك».

وللذكريات حزيران الذي قال: «لا» ولم يتنه رغم انكفائه، ورغم هبوط «بورصته» إلى أدنى مرحلة في القلب.

وللذكريات حزيران يباغت هذا السواد المخيّم ويعزف ما سوف يأتي من أغانٍ انصهاراً في أهازيج الفقراء وصولاً إلى راية مخضّبة تتقن إبداع العصر الذي نريد.

كنا سبع جزر... صرنا بحرا عظيما

□ سهرنا حتى الفجر.

كنّا سبعة «شخوص» بشريّة.. لكنّ السهرة بدأت وكلّ «شخص» منّا عالم وحده منفصل عن الآخرين.. كلٌّ واحد منّا يلتفُّ على ذاته، ويعلك ذاته.. والمسافة بينه وبين الآخرين تتشاءب

قال:

ـ سهرنا، هكذا ليلة الواحد والعشرين من أيّام الملحمة ـ المأساة في لبنان.. كنّا ـ تلك الليلة ـ سبعة «أرقام» بشريّة غارقة في زبد المأساة.. كنّا سبع جزر تائهة في محيط المأساة.. وفيما تتثاءب المسافة وتتمدَّد بين «الرقم» والآخر، بين الجزيرة والأخرى، وفيما يتثاءب

الوطن المقاتل

حسين مروّة

تحت هذا العنوان العام (الوطن المقاتل) كان حسين مروّة يكتب زاوية يوميّة في جريدة «النداء» طوال أيّام حصار بيروت (أوائل حزيران حتّى أواخر آب ١٩٨٢). وكان لهذه الزاوية فاعليتها الكبيرة، يوميّاً، في صفوف المقاتلين المدافعين عن المدينة وفي صفوف ناس بيروت الصامدين. وقد أخترنا لهذا الملفّ عدّة نماذج من مقالات هذه الزاوية الأدبيّة المقاتلة:

وتتمدَّد كلّ لحظة.. لكأنّما السبعة «الشخوص» يؤلّفون سبع جزر متناثرة في جنوب الباسيفيك..

كان الصمت الجليدي وحده يصل «الجزر السبع».

واحد منّا وحده كان يشق جليد الصمت، كلّ ربع ساعة، عبر «الراديو».. وعلى مسافة الدقائق الفاصلة بين نشرة أخبار هنا ونشرة أخبار هناك، كان يحصي الثواني بإحصاء دقّات قلبه.. كان يسمع الأخبار وحده، ويبقى جليد الصمت بيننا وبينه متماسكا لا ينكسر: يسمع بضجر، وينظر وهو يسمع بضجر، فإذا انتهت نشرة من النشرات، لوى عنقه بضجر.. ثمّ استرخى من جديد يحصي الثواني الجديدة لموعد إذاعي جديد..

كان كمن يطلب من الإذاعات أن تقدّم له، كل ربع ساعة، تغييراً ما في مجرى المأساة.. وأن تضع بين يديه «تقريراً» شافياً عمّا أحدثت من تغيير جديد في أحد فصول المأساة..

كان يضع «مهمّة» التغيير في «دقّة» الإذاعات!..

* * *

الليل ـ أيضاً ـ ويتمدَّد، طُرق الباب، وانتبه «الساهرون» ـ فجأة ـ على قامة بشريّة سمهريّة تنتصب بينهم على قاع الصمت الجليدي..

صاحب القامة السمهريّة يعرفه «الساهرون» السبعة.. كلّنا نعرفه: هو واحد منّا، هو فصل طريف من فصول «قضيّتنا» ـ الملهاة.. هو فصلها الأكثر طرافة والأوفر حيويّة.. قلنا له: المأساة؟.. صاحب «الراديو» هو الذي قال، وكان قد أغلق الليل عنه كلّ الأبواب الإذاعيّة..

وجلس صاحب القامة السمهريّة وتفرَّس وجوه «الساهرين» فرأى كيف كنّا «ساهرين»:

ـ المأساة؟.. هي ـ بالفعل ـ مأساة هائلة، عمياء، طاغية.. لكن، أريد أن أسأل أوّلاً: هل استسلم لها شعبنا؟ أي هل استقبلها راكعاً؟، أي هل انسحقت كلّ طاقاته البشريّة وكلّ قدراته الكفاحيّة؟ أي هل تحوَّل شعبنا إلى «أرقام» من البشر، لا تتحرَّك علاقة الوطن في أجسادها بعد؟.. وأن أسأل ثانياً: كيف نتعامل، منذ اليوم، مع هذا الواقع؟.. أي هل نركع له «كأمر واقع» محتوم لا مردّ له، أم علينا أن نخلق من طاقاتنا وقدراتنا غير المحدودة،